بنات حول الرسول صلى الله عليه وسلم

(٣)



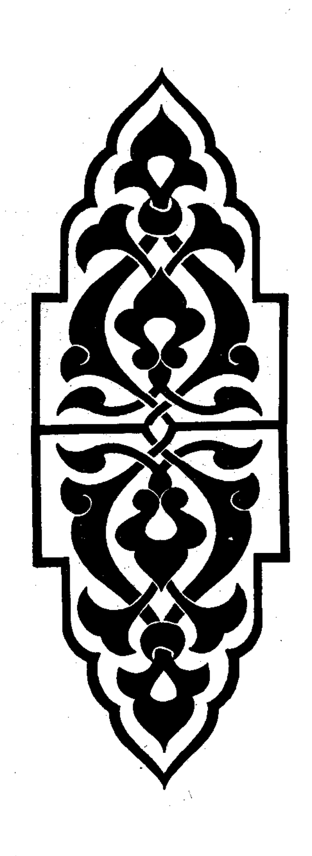
إبراهيم محمد حسن الجمل

دار الفضيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

زَيْـنَبُ (رَضِىَ اللّـهُ عَنْهَـا)

بِنْتُ مُحَمَّـدٍ ﷺ



أَبُوهَـا : مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْن عَبْدِ المُطَّلِب سَيِّد وَلَدِ هَاشِمٍ ، رَسُولُ اللّهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ .

وَأُمُّهَـا : السَّيِّدَةُ خَدِيجَة بِنْت خُوَيْلِد (رَضِىَ الله عنهَا) سَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِينَ ، وَكَانَ زَوَاجُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَخَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) مِنْ تَدَابِير القَدَر [1] ، وَكَانَ أَوَّلُ ثَمَرَةِ هَـذَا الزَّوَاجِ أَنْ رَزَقَهُمَا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) .

فَرِحَ بِهَا أَبُوهَا فَرَحاً عَظِيماً ، فَقَدْ كَانَت أَوّلَ مَوْلُودَةٍ لَهُ ، وَكَذَلِكَ كَانَت فَرْحَةُ السَّيِّدَةِ خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) تَزْدَادُ إِذَا رَأَتِ البِشْرَ وَالسَّعَادَةَ تَعْلُو وَجْهَ زَوْجِهَا الحَبِيبِ ، الَّذِى دَعَتِ المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَوَسَّلَتْ إِلَيْهِ أَنْ يُبَارِكَ لَهَا فِى عُمْرِهِ ، وَأَنْ يُدِيمَ ارْتِبَاطَهَا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِى فِيهِ كُلُّ المَعَانِى وَالصِّفَاتِ الَّتِى تَنْشُدُهَا كُلُّ امْرَأَةٍ عَظِيمَةٍ ، فَهُوَ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ، صَاحِبُ مَوَدَّةٍ

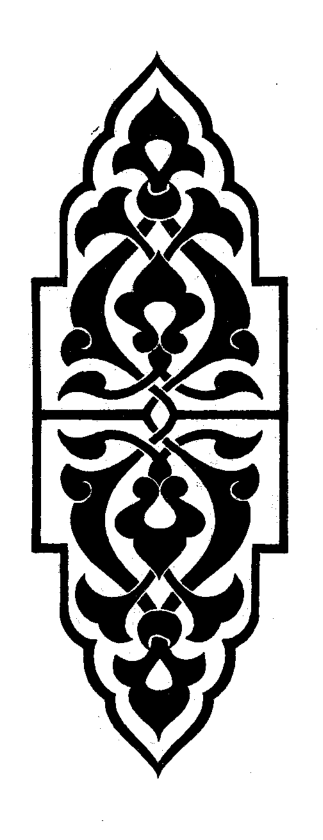
---

(١) راجع إن شئت كتابنا : (السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنهـا) .

وَرَحْمَةٍ قَلَّمَا يَهَبُهَا المَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِغَيْرِ مُحَمَّد ابْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ الَّذِى سَعِدَتْ بِزَوَاجِهَا مِنْهُ أَيَّمَا سَعَادَةٍ !

نَشْأَةٌ عَرَبِيَّة

عَزَمَت السَّيِّدَةُ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) عَلَى أَنْ تُنَشِّئَ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) فِى صِغَرِهَا تَنْشِئَةً عَرَبِيَّةً عَرِيقَةً ، فَعَهِدَتْ بِهَا إِلَى مُرْضِعَةٍ تَنْطَلِقُ بِهَا إِلَى الصَّحْرَاء حَيْثُ الهَوَاءُ الطَّلْق ، وَالبُعْدُ بِهَا فِى مَهْدِهَا عَنْ قَيْظِ مَكَّةَ وَحرِّهَا ، وَكَانَ أَشْرَافُ مَكَّةَ يَبْعَثُونَ بِصِغَارِهِمْ إِلَى مُرْضِعَاتٍ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ ، ثُمَّ يُعِيدُونَهُم إِلَى ذَوِيهِمْ بَعْدَ مُضِىّ سَنَتَيْنِ أَوْ تَزِيد ، لَقَدْ عَادَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) بَعْدَ عَامَيْنِ ، وَفَرِحَتْ الأُمُّ خَدِيجَةُ بِنْتُ خوَيْلِدٍ (رَضِىَ الله عنهَا) بِعَوْدَةِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) إِلَيْهَا ، فَكَانَتْ هِىَ مَحَلُّ رِعَايَتِهَا وَعِنَايَتِهَا .



فِى بَيْتِ أَبِيهَا وَأُمِّهَا

رَجعَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) إِلَى بَيْتِ أَبِيهَا وَأُمِّها ، فَكَانَ الأَبُ يَرْعَاهَا بِحُبِّهِ وَحنَانِهِ ، وَعَطْفِهِ ، وَكَانَت الأُمُّ تَسْهَرُ عَلَى رَاحَتِهَا ، وَلَمْ تَكْتَفِ بِذَلِكَ ، بَلْ عَهِدَتْ إِلَى مُرَبِّية تَسْهَرُ عَلَى رَاحَتِهَا وَتَرْبِيَتِهَا وَتَقْوِيمِهَا ... حَتَّى جَاوَزَتِ العَاشِرَةَ ، وَبَدَأَتْ تَدْخُل فِى عَهْدٍ جَدِيدٍ هُوَ عَهْد الشَّبَابِ ، فَكَانَتْ مَحطَّ أَنْظَارِ الجَمِيع ، وَالكُلُّ يَتَمَنَّى أَنْ يَحْظَى بالتَّقَرُّبِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ ،

وَالسَّيِّدَة خَدِيجَة بِنْتِ خُوَيْلِد (رَضِىَ الله عنهَا) لِمَا لَهُمَا مِن العَرَاقَةِ فِى النَّسَبِ وَالعُلُوّ فِى القَدْرِ وَالمَكَانَةِ وَالسِّيرَةِ الحَسَنَةِ ، فَلَقَد حَافَظُوا عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِم ، فَلَمْ يَشْتَرِكَا فِى اللَّهْوِ وَالسَّهَرِ الَّذِى كَانَ مُنْتَشِراً فِى بيُوتِ العُظَمَاءِ مِنْ القُرَشِيِّين وَأَهْلِ مَكَّةَ .

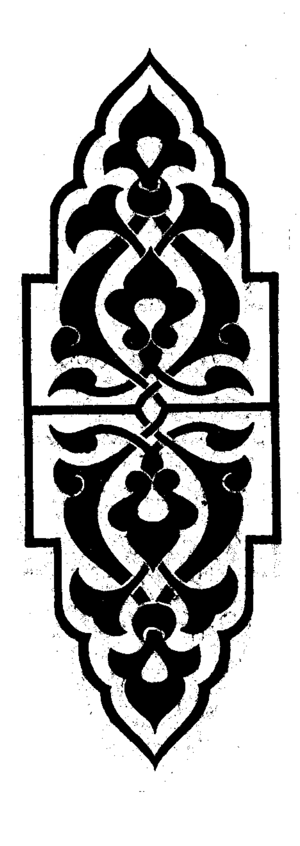
خِطْبَةٌ وَقَبُول

كَانَتِ العَادَةُ فِى ذَلِكَ الوَقْتِ عِنْدَ العَرَبِ عِنْدَمَا تَتَجَاوَز الفَتَاةُ العَاشِرَةَ بِقَلِيلٍ ، تَكُونُ مَحطَّ الأَنْظَارِ ، فَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا الشُّبَّانُ ، وَيَطْلُبُونَ من ذويهم التَّقَدُّمَ إِلَى أَهْلِهَا بِالْخِطْبَةِ وَالزَّوَاجِ ، وَكَثِيراً مَا يَطْلُبُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ أُمُورِهِمْ لِيَنُوبُوا عَنْهُمْ فِى الخِطْبَةِ بَدَلًا مِنْ التَّقَدُّم بِأَنْفُسِهِم .

وَمِثْلُ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) بِنْت مُحَمَّد ﷺ كَانَ يَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِن الأَهْلِ وَالأَقَارِبِ أَنْ يَفُوزَ بِهَا خِطْبَةً وَزَوَاجاً ، لَكِنّ خَالتهَا (هَالَة بنْت خُوَيْلِد) أُخْتَ السَّيِّدَةِ خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهُما) قَطَعَتْ عَلَى الجَمِيعِ التَّفْكِيرَ فِى هَذَا الأَمْرِ وَوَقَفَتْ لَهُمْ بِالمِرْصَادِ ، وَمَنَعَتْهُم أَنْ يُفَكِّرُوا فِى أَمْرِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) .

★ ★ ★

إِنَّ هَالَة أَصْغَرُ مِنْ خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عَنهُما) ، فَهِىَ فِى مَنْزِلَةِ الأُخْتِ وَالأُمِّ ، وَهَالَة تُحِبُّهَا وَتُقَدِّرُ مَكَانَتهَا مِنْهَا ، وَبَيْتُ خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) وَمُحَمَّدٍ ﷺ مَفْتُوحٌ أَمَامَهَا فِى كُلِّ وَقْتٍ تَغْشَاهُ لَيْلًا وَنَهَاراً ، وَتَجِدُ فِيهِ



رَاحَتِهَا وَسَعَادَتِهَا ، وَإِنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تُقَوِّى هَذِهِ الصِّلَةَ بِكُلِّ مَا تَمْلِكُ لِيَظَلّ الودُّ وَالمَحَبَّةُ ، فَكَانَتْ تَصُدّ كُلَّ مَنْ يُفَكِّرُ فِي خِطْبَةِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَى أُخْتِهَا خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عنهما) لِتَخْطِبَ ابْنَتَهَا زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) لابْنِهَا أَبِى العَاص .

دَخَلَتْ هَالَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) أُمُّ أَبِى العَاص عَلَى أُخْتِهَا خَدِيجَة ، ثُمَّ دَعَتْها إِلَى أَنْ تُنْصِتَ إِلَيْهَا جَيِّداً .

قَالَتْ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : مَا الجَدِيدُ فِى الأَمْرِ يَا هَالَةُ ؟

قَالَتْ هَالَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : الجَدِيدُ يَا أُخْتِى العَزِيزَةَ أَمْرُ أَبِى العَاص وَزَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) .

قَالَتْ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا): وَمَا أَمْرُهُمَا يَا هَالَة ؟

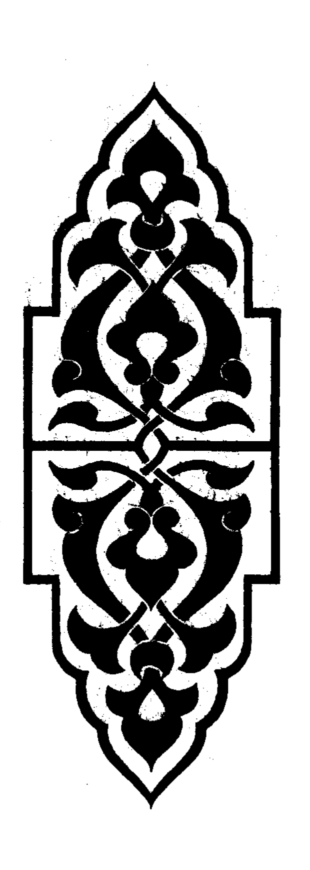
قَالَتْ هَالَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : الموَافَقَةُ عَلَى خِطْبَةِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) لأَبِى العَاص .

قَالَتْ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : وَهَلْ هَذَا أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَى مُوَافَقَة ؟

قَالَتْ هَالَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : نَعَمْ إِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مُوَافَقَةٍ صَرِيحَةٍ لَا تَلْمِيحَ فيهَا .

قَالَتْ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : هَلْ عَرَضْتِ صَرَاحَةً وَرَدّك أَحَدٌ ؟

قَالَتْ هَالَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : حَقِيقَةً لَمْ أَعْرِضْهُ صَرَاحَةً إِلَّا الآن ، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَشُكُّ فِى مُوَافَقَتِكِ ، فَأَبُو العَاص لَيْسَ ابْنِى وَحْدِى وَلَكِنَّهُ أَيْضاً ابْنُكِ ، وَمَا أَظُنُّ



أَنَّكِ تَبْخَلِينَ عَلَيْهِ عِنْدَمَا يَطْلُبُ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) لِنَفْسِهِ وَقَدْ أَسَرَّ إِلَىّ بِرَغْبَتِهِ هَذِهِ .

قَالَتْ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : وَمَا عَلَىّ أَنْ أَفْعَل يَا هَالَةُ ؟

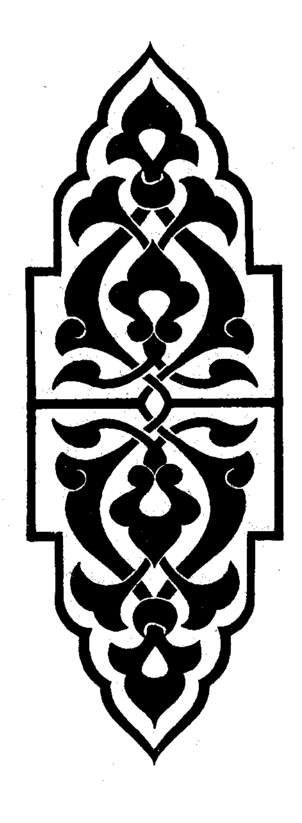
قَالَتْ هَالَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : عَلَيْكِ أَنْ تُكَلِّمِى مُحَمَّداً ﷺ وَإِذَا وَجَدتِ مِنْهُ أَىّ اعْتِرَاضٍ أَنْ تُقْنِعِيهِ بالمُوَافقَةِ .

قَالَتْ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) : كُلُّ شَىءٍ سَيَتِمُّ عَلَى مَا يُرَامُ ، وَعَلَى مَا تُحِبِّين ، فَاطْمَئِنِّى يَا هَالَةُ وَلَا تَشْغلِى بَالَكِ كَثِيراً .

نَقَلَتْ خَدِيجَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) إِلَى زَوْجِهَا مُحَمَّدٍ ﷺ مَا طَلَبَتْهُ هَالَةُ (رَضِىَ الله عنهَا) ، فَلَمْ يَعْتَرِضْ ... بَلْ وَافَقَ عَلَى الخِطْبَةِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ جَيِّداً أَبَا العَاص .

إِنَّهُ يَتَحَلَّى بالأَخْلَاقِ الكَرِيمَةِ وَالعَادَاتِ الطَّيِّبَةِ ، فَهُوَ لَا يَتَرَدَّدُ عَلَى الحَانَاتِ وَمَجَالِسِ اللَّهْوِ ، بَلْ يَمِيلُ إِلَى الجدّ فِى العَمَلِ وَالتِّجَارَةِ ، فَبِالرَّغْمِ مِنْ صِغَرِهِ فَإِنَّهُ يَحْرِصُ عَلَى مُرَافَقَةِ التُّجَّار فِى رِحْلَتَيْهِمْ إِلَى الشَّام وَإِلَى اليَمَن فِى الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، وَإِلَى الأَمَاكِنِ الَّتِى يَتَرَدَّدُونَ عَلَيْهَا فِى مُدُنِ البِلَادِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَهُوَ قُرَشِىّ مَكِّىّ يَلْتَقِى نَسَبُهُ مَعَ مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ عِنْدَ الجدّ الثَّالِث عَبْد مَنَاف بْنِ قُصَىّ .

وَيَلْتَقِى نَسَبُهُ مِنْ جِهَةِ الأُمِّ مَعَ زَيْنَبَ (رَضِىَ الله عنهَا) بِنْت مُحَمَّدٍ ﷺ عِنْدَ جَدِّهَا الأَقْرَب خُوَيْلِد ابْنِ أَسَد بْنِ عَبْدِ العُزَّى .



السُّكُوتُ عَلَامَةُ الرِّضَا

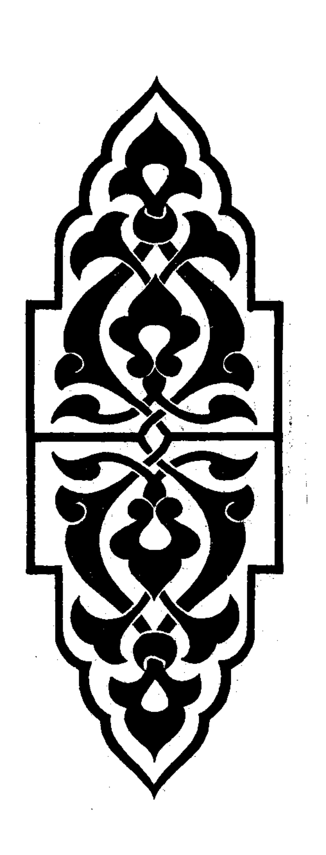
تَقَدَّمَ أَبو العَاص إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَالِدِ زَيْنَب (رَضِيَ الله عنهَا) يَطْلُبُ مِنْهُ يَدَ ابْنَتِهِ، رَحّبَ بِهِ مُحَمَّدُ ابْن عَبْدِ الله ﷺ وَكَانَ جَوَابُهُ: إِنَّهُ نِعْم الصِّهْر الكُفْء، وَأَنَّهُ لَا يَرَى فِيهِ عَيْباً، فَهُوَ مِنْهُمْ وَهُمْ مِنْهُ، وَطَلَبَ مِنْ أَبِى العَاص مُهْلَةً يَسِيرَة لِيَتَأَكَّدَ أَنَّ زَيْنَب (رَضِى الله عنهَا) مُوَافِقَةٌ عَلَى ابن خَالَتِهَا فَلَمْ يَقْطَعْ بِرَأْى دُونَهَا ...

نَادَى الوَالِدُ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا)، وَأَسَرَّ إِلَيْهَا بِكَلِمَاتٍ ... فَاحْمَرّ وَجْهُهَا وَسَكَتَتْ ــ وَالسُّكُوت عَلَامَةُ الرِّضَا ــ فَضَمَّهَا الوَالِدُ إِلَى صَدْرِهِ وَكَانَتْ المُوَافَقَةُ وَالإِجْمَاع عَلَيْهَا، وَأُعْلِنَتِ الخِطْبَةُ، وَهَنَّأَ زَوْجُ الخَالَةِ أَبَا العَاص، وَبَدَأَ فِى الاسْتِعْدَادِ لِيَوْمِ الزِّفَافِ.

عَــرُوس مَكّة

تَهَيّأَ الجَمِيعُ لِحَفْلِ الزَّوَاجِ، وَهُوَ اليَوْمُ الَّذِى تَلْتَقِى فِيهِ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) بِابْنِ خَالَتِها، وَسَرَى الخَبَرُ فِى أَرْجَاءِ مَكَّةَ، وَأَتَى الأَهْلُ وَالأَقَارِبُ وَالأَصْدِقَاءُ، وَذُبِحَتِ الذَّبَائِحُ، وَأُقِيمَتِ المَوَائِدُ، وَدُعِىَ لَهَا كُلُّ مَنْ كَانَ مُقِيماً بِمَكَّةَ وَمَنْ أَتَى مِنْ خَارِجِهَا ... ثُمَّ انْتَقَلَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) إِلَى بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ.

كَانَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) سَعِيدَةً مَعَ أَبِى العَاصِ، وَكَانَ يَعْمَلُ بِالتِّجَارَةِ، فَيَذْهَبُ إِلَى سُوقِ

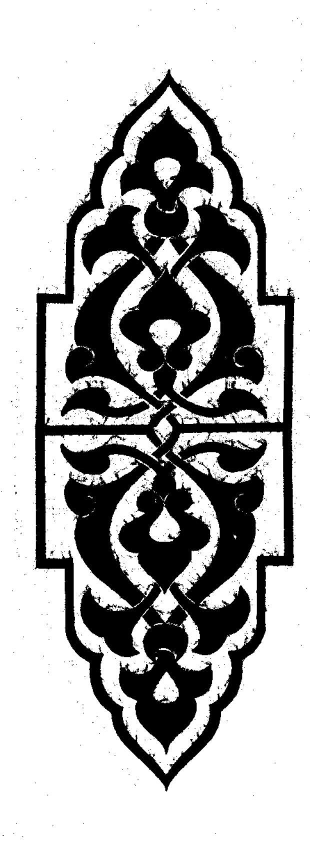


حباشَةَ ، وَإِلَى أَطْرَافِ الجزيرَةِ ، ثُمَّ إِلَى اليَمَنِ أَوْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَتُقِيمُ زَيْنَب (رَضِيَ الله عنهَا) مَعَ خَالَتِها هَالَة أُمِّ أَبِى العَاصِ ، وَكَثِيراً مَا كَانَتْ تَأْخُذُ خَالَتهَا إِلَى بَيْتِ السَّيِّدَةِ خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) وَالِدَتِهَا وَقَدْ تَمْتَدّ إِقَامَتُهمَا أَيَّاماً حَتَّى يَرْجِعَ أَبُو العَاص مِنْ تِجَارَتِهِ ، وَقَدْ يَأْتِى مَسْرُوراً بِمَا يَحْمِلُ مَعَهُ مِنَ الرِّبْحِ الوَفِير ، فَهُوَ مَحَلّ ثِقَةٍ مِنَ الجَمِيع ، لِمَا يَتَمَيّزُ بِهِ مِنْ خُلُقٍ كَرِيمٍ وَصِدْقٍ وَحُسْنِ مُعَامَلَةٍ .

نُزُول الوَحْى

لَقَدْ طَرَأَ أَمْرٌ جَدِيدٌ عَلَى بَيْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَالسَّيِّدَةِ خَدِيجَة بِنْت خُوَيْلد (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَشُغِلَ صَاحِبُ البَيْتِ بالاسْتِعْدَاد لِتَلَقِّى رِسَالَة رَبِّ السَّمَاء وَبالأَحْوَالِ الطَّارِئة عَلَيْهِ ، وَشُغِلَتِ السَّيِّدَةُ خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) بِأَمْرِ زَوْجِهَا ، فَهِىَ تَعْرِفُ جَيِّداً مِنْ أَمْرِ زَوْجِهَا الكَثِير ، وَتُوقِنُ أَنَّهُ مَعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَنَّهُ هُو نَبِىّ هَذِهِ الأُمَّة ﷺ ، وَأَنَّهُ سَوْفَ يُرْسَل إِلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَيْنَ وَمَتَى ..؟ لَا تَكَادُ تَجْزِمُ بِهِ ، لَكِنَّها عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِتَقُومَ بِأَىّ عَمَلٍ تَرَاهُ لِيُسَهِّلَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَمْرَهُ .

لَقَد انْقَطَعَ الأَبُ إِلَى التَّعَبُّدِ وَالتَّأَمُّلِ فِى غَارِ حِرَاءَ ، وَتَفَرَّغتِ الزَّوْجَةُ لَهُ تُهَيِّئ لَهُ أَسْبَابَ الرَّاحَةِ وَالهُدُوءِ ، وَتُرَاقِبُهُ فِى الذّهَابِ إِلَى الغَارِ وَالرُّجُوعِ مِنْهُ ، فَتُعِدُّ لَهُ



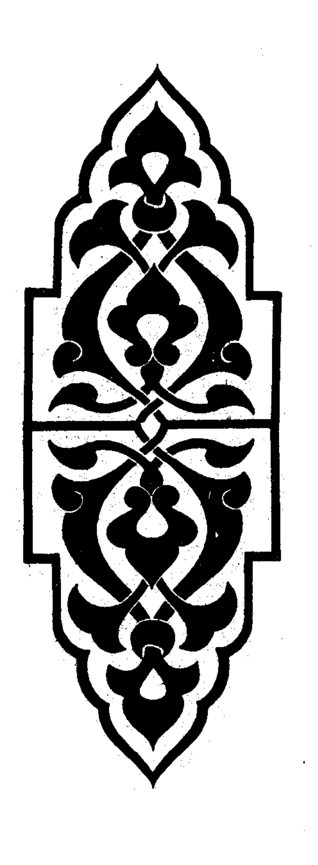
مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ ، وَقَدْ يَأْتِى بِنَفْسِهِ لِيَأْخُذَهُ ، أَوْ تُرْسِلَ إِلَيْهِ مَا يَطْلُبُهُ مَعَ خَادِمٍ لَهَا .

ثُمَّ حَدَثَ مَا كَانَتْ تَتَوَقَّعُهُ السَّيِّدَةُ خَدِيجَة (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَهُوَ أَمْرٌ لَيْسَ لَهُ سَابِقَة ، فَقَدْ نَزَلَ الوَحْى عَلَى زَوْجِهَا الأَمِينِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ ، يُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ نَبِىّ وَرَسُولُ هَذِهِ الأُمَّة ... يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ ، وَإِفْرَادِهِ بالعِبَادَةِ فَيُخَلِّصُ النَّاسَ مِنَ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، وَعَلى الجَمِيعِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ .

قَلْبٌ وَإِيمَـان

عَلِمَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَهِىَ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا أَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَوْحَى إِلَى أَبِيهَا ﷺ ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيًّا وَرَسُولًا إِلَى النَّاسِ جَمِيعاً هَادِياً وَمُبَشِّراً لِمَنْ أَطَاعَهُ بالجَنَّة وَمُنْذِراً لِمَنْ عَصَاهُ بِالنَّار ، وَكَانَ زَوْجُهَا فِى رِحْلَةٍ لِلتِّجَارَةِ ، وَعَزَمَتْ عَلَى أَنْ تَلْقَاهُ ﷺ وَتُؤْمِنَ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَة خَدِيجة (رَضِىَ الله عنهَا) عَاجَلَتْ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا وَإِلَى بَاقِى أَخَوَاتِهَا ، وَأَخْبَرَتْهُنَّ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى وَالِدِهِنَّ ، وَدَعَتْهُنَّ إِلَى الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَأَنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَنَطَقْنَ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَحَسُنَ إِيمَانُهُنَّ .

رَجَعَ أَبُو العَاص بْنِ الرَّبِيع مِنْ رِحْلَتِهِ ، وَقَدْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيث مَنْ مَعَهُ مِنَ التُّجَّارِ ، وَمِن حَدِيثهِمْ عَمَّا يَقُومُ بِهِ زَوْجُ خَالَتِهِ خَدِيجَةَ (رَضِىَ الله عنهَا) من الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ، وَإِفْرَادِه بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ .



فَرَاحَ يَسْأَلُ زَيْنَب (رَضِيَ اللهُ عنهَا) عَمَّا حَدَثَ مِنْ أَمْرِ وَالِدِهَا فَأَنْبَأَتْهُ بالخَبَرِ اليَقِين وَانْتَظَرَتْ مِنْهُ أَنْ يُسْرِعَ فَيُؤْمِن بِمَا آمَنَتْ بِهِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ جَيِّداً زَوْجَ خَالَتِهِ ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ خُلُقٍ ، وَمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَعْمَالٍ خَيِّرَةٍ ، لَكِنَّهُ لَمْ يُعَقِّبْ بِكَلِمَةٍ ، وَظَلَّ صَامِتاً ، فَتَرَكَتْهُ عَلَى أَمَلِ أَنْ يُرَاجِعَ نَفْسَهُ .

مَضَت مُدَّةٌ وَزَيْنَبُ (رَضِىَ اللهُ عنهَا) لَا تُفَاتِحُهُ فِى مَوْضُوعِ أَبِيهَا ، وَفِى أَثْنَاءِ حَدِيثِهِمَا مَعاً ، سَأَلَتْهُ : مَا لَكَ لَا تُجِيبُ بِكَلِمَةٍ عَمَّا سَمِعْتَ وَوَقَرَ فِى أُذُنِكَ مَنْ أَمْرِ زَوْجِ خَالَتِكَ ؟

قَالَ أَبُو العَاص : هَلْ عَرَفْتِ مَوْقِفَ أَهْل مَكَّةَ مِنْ أَبِيكِ ؟

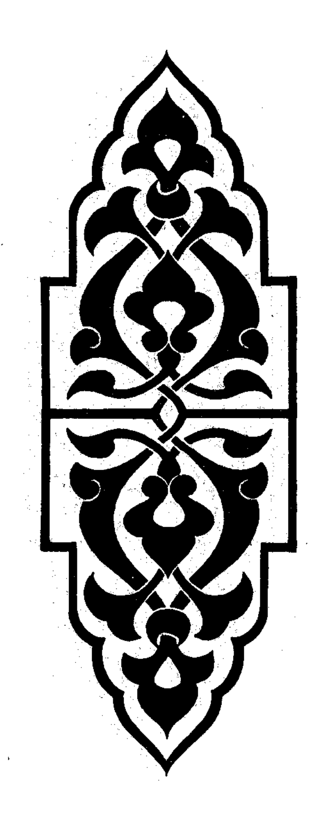
قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ اللهُ عنهَا) : وَمَا هُوَ مَوْقِفُهُمْ يَا أَبَا العَاص ؟

قَالَ أَبُو العَاص : إِنَّهُمْ ثَائِرُونَ عَلَيْهِ ، يَتَرَبَّصُونَ بِهِ ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يُؤْذِيهِ بِالْكَلِمَةِ النَّابِيَةِ وَالفِعْلِ القَبِيحِ .

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ اللهُ عنهَا) : وَمَا الَّذِى يَهُمُّنَا نَحْنُ ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَقِفَ بِجِوَارِهِ نُسَاعِدُهُ وَنَحْمِيهِ مِنْهُمْ .

قَالَ أَبُو العَاص : وَلَكِن مَاذَا أَعْمَلُ وَتِجَارَتِى مَعَ سَادَاتِ مَكَّةَ وَمَنْ مَعَهُمْ ، أَلَا تَعْرِفِينَ أَنِّي أَتَعَامَلُ مَعَهُمْ وَأَبِيعهُمُ السِّلَاح فَإِذَا عَادَيْتُهُمْ فَمَعَ مَنْ أَتَعَامَلُ ؟

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ اللهُ عنهَا) : هَلْ تَرَى أَنَّكَ سَتَظَلّ تَتَعَامَلُ مَعَهُمْ ، وَتَكُونُ عَلَى دِينِهِم ؟



قَالَ أَبُو العَاص : وَلِمَ لَا أَظَلّ عَلَى دِينِ قُرَيْشٍ مَا دَامَ هَذَا فِى مَصْلَحَتِنَا ؟

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : وَهَلْ سَتُعَادِى أَبِى مِثْلَهُمْ ؟

قَالَ أَبُو العَاص : لَا ... لَنْ أُعَادِى أَبَاك ، وَلَنْ تَصْدُرَ مِنِّى كَلِمَةٌ تُسِيء إِلَيْهِ ، وَسَأَظَلُّ عَلَى احْتِرَامِى ، وَتَقْدِيرِى لَهُ .

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : وَإِذَا طَلَبَ سَادَةُ مَكَّةَ أَنْ تَشْتَرِكَ مَعَهُمْ فِى إِيذَاءِ أَبِى فَبِمَاذَا تُجِيبُهُمْ ؟

قَالَ أَبُو العَاص : إِنَّهُمْ لَنْ يَطْلُبُوا مِنِّى ذَلِكَ ، وَيَكْفِيهِمْ أَنَّنِى لَمْ أُؤْمِن بِهِ ، وَلَمْ أُعْلِنْ دُخولى فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ .

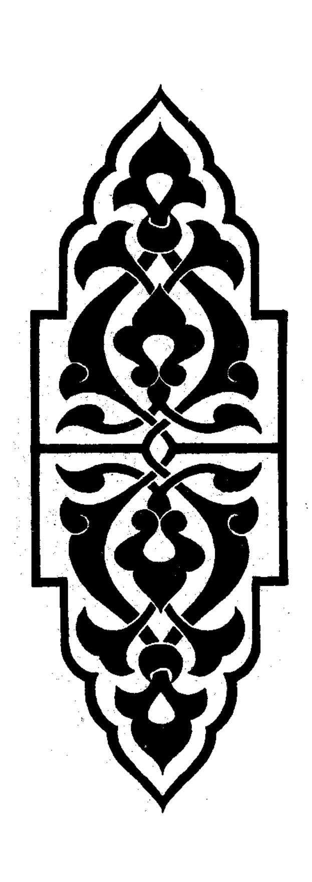
قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : إِنِّى لَأَرْجُو أَنْ تُؤْمِنَ بِهِ !

قَالَ أَبُو العَاص : سَيَأْتِى اليَوْمُ فَأُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ ، فَإِنِّى أَرَى أَنَّ دَعْوَتَهُ سَوْفَ تَنْتَشِرُ ، وَسَيُؤْمِنُ بِهَا النَّاسُ جَمِيعاً .

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : أَلَا تَعْرِفُ أَنَّنِى آمَنْتُ بِمَا جَاءَ بِهِ ؟

قَالَ أَبُو العَاص : نَعَمْ أَعْرِفُ ذَلِكَ ، وَلَكِ الحُرِّيَّةُ المُطْلَقَةُ ، مَا دَامَ هَذَا لَا يُؤَثِّرُ عَلَى عَلَاقَتِنَا .

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : سَنَظَلُّ مَعاً ، وَسَوْفَ نَظَلُّ أَوْفِيَاء ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّهُ الصَّادِقُ الأَمِينُ ... وَلَقَدْ



أَسْلَمَ ، وَآمَنَ بِهِ جَمْعٌ مِنْ مَكَّةَ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ ، وَعُثْمَان ابْنُ عَفَّان ، وَابْنُ خَالك الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّام (رَضِىَ الله عنهُم أجمعين) .

قُرَيْش وَالدِّين الـجَدِيد

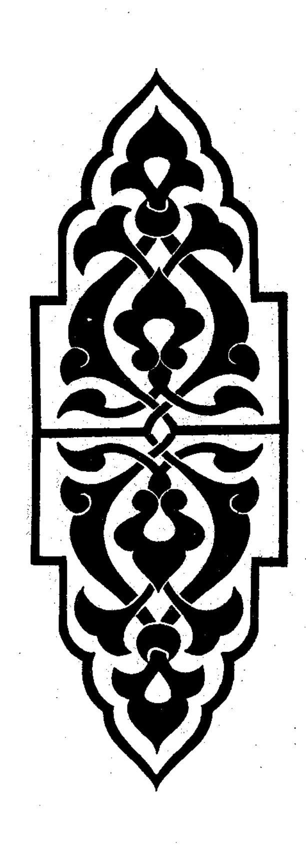
كَانَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) تَتَأَلَّمُ كَثِيراً مِنْ إِيذاءِ المُشْرِكِينَ لِأَبِيهَا ﷺ ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَرُدَّ أَوْ تَقُولَ شَيْئاً ، فَهِيَ مَعَ زَوْجِهَا ، وَلَكِن لَا تَعْمَلُ مَا يُغْضِبُهُ أَوْ يُسِيء إِلَيْهِ ، وَجَاءَ دَوْرُ المُقَاطَعَةِ ، وَقَاطَعَتْ مَكَّةُ بَنِى هَاشِم ، وَحَاصَرُوهُمْ فِى الشِّعْبِ وَهُمْ فِى دور بَنِى هَاشِم ، فَقَدْ دَخلَهُ جَمْعٌ مِنْ المُسْلِمِينَ ، وَمَعَهُمْ النَّبِىّ ﷺ وَزَوْجُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلد ، وَأُمّ كُلْثُوم ، وَفَاطِمَةُ (رَضِىَ الله عَنْهُنَّ أَجْمَعِينَ) .

قَالَتْ زَيْنَبُ (رَضِى الله عنهَا) : يَا أَبَا العَاص ! أَلَسْتَ تَرَى أَنْ نَكُونَ مَعَ الأَهْلِ وَالوَالِدَيْنِ وَالأُخْتَيْنِ ؟

قَالَ أَبُو العَاص : لَا يَا زَيْنَب ... إِنَّنِى أَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ زَوْجَكِ خَذَلَ قَوْمَهُ ، وَكَفَرَ بِآلِهَةِ آبَائِهِ إِرْضَاءً لامْرَأَتِهِ ...

سَكَتَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) ، وَرَأَتْ أَنْ تَبْقَى مَعَ زَوْجِهَا ، حَتَّى يَقْضِىَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا .

لَكِنَّهَا رَاحَتْ تَتَلَمَّس أَخْبَارَ المُقَاطَعَةِ ، وَكَانَ يُؤْلِمُهَا مَا تَسْمَعُ عَمَّا يُعَانِيهِ بَنُو هَاشِم مِنْ شِدَّةِ الحِصَار ، فَلَقَدْ كَانَتْ الأَخْبَارُ تَأْتِيهَا مِنْ أَفْوَاهِ الأَعْدَاء الَّذِينَ

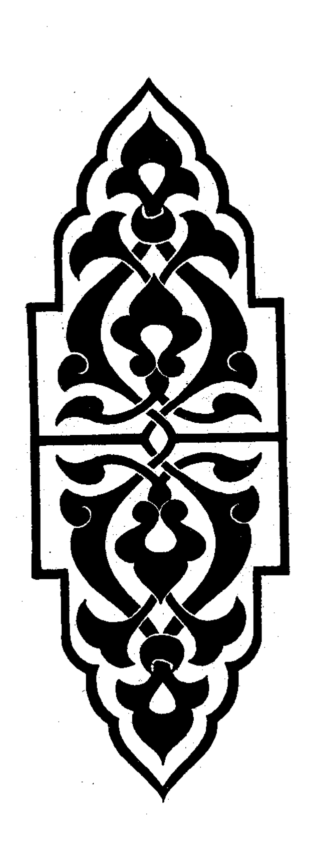


يَتَبَاهُونَ بِمَا يُصِيبُ المُؤْمِنِينَ ، وَهُمْ يَعِيشُونَ فِى مِحْنَة وَعَذَاب .

ثُمَّ انْجَلَت المِحْنَة، وَفُكّ الحِصَار ، وَخَرَجَ بَنُو هَاشِم مِنَ الشِّعْبِ لِيَبْدَأُوا حَيَاةً جَدِيدَةً ، وَهُمْ بَيْنَ الإعْيَاء وَالمَرَضِ .



اشْتَدَّتْ وَطْأَةُ الكُفَّارِ عَلَى المُسْلِمِينَ ، وَمَاتَتْ خَدِيجَةُ بنْتُ خُوَيْلد (رَضِىَ الله عنهَا) وَمَاتَ أَبُو طَالِب عَمّ النَّبِىّ ﷺ ، وَأَخَذَ مَنْ أَسْلَمَ فِى الهِجْرَةِ إِمَّا إِلَى المَدِينَةِ أَوْ إِلَى الحَبَشَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ فِى مَكَّةَ إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ . وَجَاءَ دَوْرُ المُؤَامَرَةِ الكُبْرَى ... وَمُحَاوَلَةِ قَتْلِ النَّبِىّ ﷺ فَكَانَ الأَمْرُ بِالهِجْرَةِ إِلَى المَدِينَةِ .



إِلَى يَثْرِب

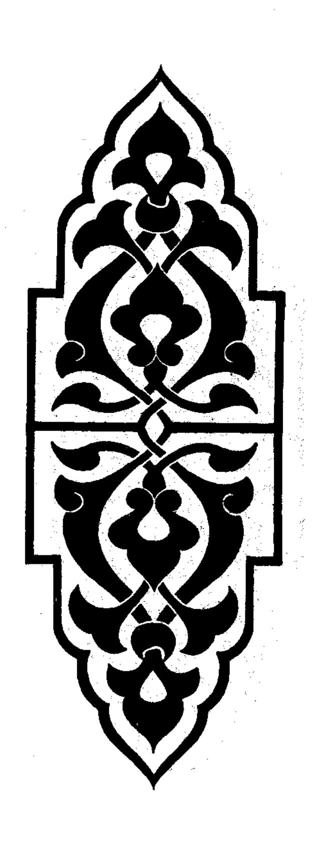
بَكَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) كَثِيراً حِينَمَا عَلِمَتْ بِمُحَاوَلَةِ قَتْلِ أَبِيهَا ، فَقَد اخْتَارُوا فِتْيَاناً أَشِدّاء مِنَ القَبَائِل المُخْتَلِفَةِ ، وَخَطَّطَ أَعْدَاء النَّبِىّ ﷺ حَتَّى تَتَوَزَّع دِيَتُهُ عَلَى القَبَائِل ، وَكَانَتْ الهِجْرَةُ ... وَوَصَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَلِيماً مُعَافاً إِلَى المَدِينَةِ ، وَاسْتَقْبَلَهُ أَهْلُهَا أَحْسَنَ اسْتِقْبَال ، فَرِحَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) بِذَلِكَ فَرَحاً كَبِيراً ، حِينَمَا جَاءَتْ الأَنْبَاءُ مِنْ يَثْرِب ، فَهَدَأَتْ نَفْسُهَا ، وَاطْمَأَن قَلْبُهَا ، وَارْتَاحَ بَالُهَا .

كَانَت تَتَرَدَّدُ عَلَى مَنْ بَقِيَ فِي بَيْتِ العَائِلَةِ لِتَرَى أُمَّ كُلْثُوم ، وَفَاطِمَة (رَضِيَ الله عنهُمَا) ، وَلِتُؤنِسهُمَا ، وَتَقْضِي لَهُمَا حَاجَاتِهِمَا ، وَظَلَّت كَذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ رَسُول اللهِ ﷺ مِنْ يَثْرِب (المَدِينَة) فَصَحبَ أُمَّ كُلْثُوم ، وَفَاطِمَةَ (رَضِيَ الله عنهُما) ، وَأُمَّ أَيْمَن خَادِمَتَهُما ، وَكَانَتْ فَرْحَتُهَا كَبِيرَةً حِينَمَا عَلِمَتْ بوصُولِهِمَا سَالِمَتَيْنِ إِلَى أَبِيهِمَا .

نَصْــرُ اللَّــهِ

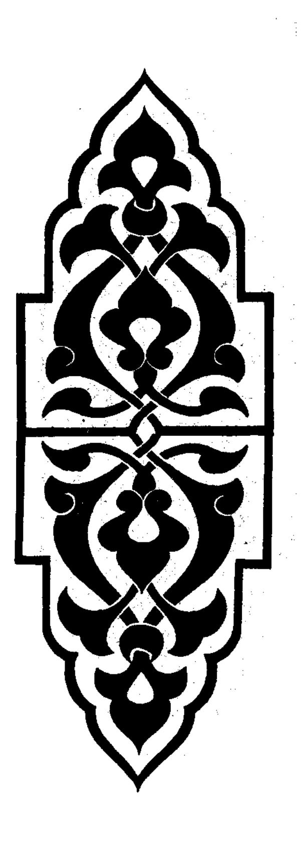
لَمْ يَنْسَ المُسْلِمُونَ وَهُمْ بِيَثْرِب (المَدِينَة) مَا لَقَوْهُ مِنْ عَذَابٍ ، وَاضْطِهَادٍ مِنَ المُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ ، أَمَا وَقَدْ أَصْبَحُوا قُوَّةً فَلَيْسَ أَمَامَهُمْ إِلَّا أَنْ يُفَكِّرُوا فِي اسْتِرْدَادِ حُقُوقِهِمْ ، فَرَاحُوا يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بالمُشْرِكِينَ ، وَيَتَتَبَّعُونَ تَحَرّكَاتِهِمْ ، وَتَنَقُّلَاتِهِمْ ، خَارِجَ مَكَّةَ ، وَهُمْ يُتَاجِرُونَ ، وَوَجَدُوا أَنَّ أَعْظَمَ لَطْمَةٍ يُوَجِّهُونَهَا لَهُمْ هِيَ قَطْعُ الطَّرِيقِ التُّجَارِيّ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الحَيَوِيّ بَيْنَ مَكَّةَ وَالشَّام حَيْثُ لَا بُدَّ لِأَهْلِ مَكَّةَ مِنْ مُرُورِهِمْ بِالقُرْبِ مِنْ المَدِينَةِ ، فَبَدَءُوا يَتَرَبَّصُونَ بِالْقَوْمِ حَتَّى إِذَا وَافَتْهُمْ أَوّلُ فُرْصَةٍ تَجَمَّعُوا لَهَا ، وَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ .

لَقَدْ جَاءَتْهُم الأَخْبَار بأَنَّ قَافِلَةً تَحْمِلُ بَضَائِعَ مِنَ الشَّامِ لِأَهْلِ مَكَّةَ ، يَقُودُهَا عَمْرو بن الحَضْرَمِيّ فَاسْتَوْلَوا عَلَى مَا فِيهَا مِنْ مَتَاع ، وَأَخَذُوا رِجَالَهَا أَسْرَى ، وَقَتَلُوا ابْن الحَضْرَمِيّ .



وَصَلَتْ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ أَخْبَارُ اسْتِيلَاءِ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى التِّجَارَةِ ، وَأَسْرِ الرِّجَالِ ، وَقَتْلِ عَمْرو ابْنِ الحَضْرَمِىّ ، فَأَصَابَهُمْ ذُهُول ، فَكَانُوا بَيْنَ المُصَدِّقِينَ وَالمُكَذِّبِينَ قَائِلِينَ : هَلْ تَبْلُغُ الجُرْأَةُ بِمُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يَقْتُلُوا وَيَأْسِرُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مَا يُرِيدُونَ ؟

لَكِنَّهُمْ فُوجِئُوا بِصَوْت ضَمْضَم بْنِ عَمْرو الغِفَارِىّ يَشُقُّ الفَضَاء حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَسْمَاعِ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَهُوَ يُوَلْوِلُ وَيَقُول : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ... اللَّطِيمَة اللَّطِيمَة ... أَمْوَالُكُمْ مَعَ أَبِى سُفْيَان ، قَدْ تَعَرَّض لَهَا مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ... لَا أَرَى لَكُمْ إِلَّا أَنْ تُدْرِكُوهَا ... الغَوْث الغَوْث !!



إِعْدَادُ العُدَّة

كَادَ الجُنُون يَسْتَولى عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ، أَيَفْعَلُ مُحَمَّدٌ مِثْلَ هَذَا ، وَقَدْ خَرَجَ هَارِباً مِنَ القَتْلِ فِى مَكَّةَ ، خَرَجَ وَحْدَهُ لَا جَيْشَ يَحْمِيهِ ، وَلَا مَالَ مَعَهُ يُنْفِق مِنْهُ ؟

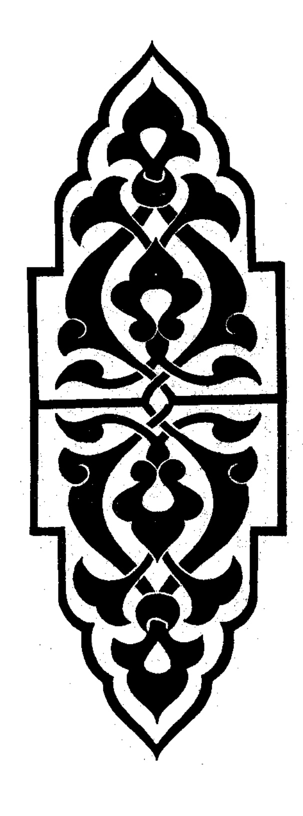
لَقَدْ حَان الوَقْتُ لِلقَضَاءِ بِسُهُولَةٍ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ .

جَمَعُوا جُمُوعَهُمْ ، وَاسْتَعَدُّوا لِلْقِتَالِ ، وَبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَبَا سُفْيَان نَجا مِنَ القَتْلِ بَعْدَ أَنْ غَيَّرَ طَرِيقَهُ وَوَصَلَ سَالِماً إِلَى مَكَّةَ إِلَّا أَنَّ أَصْوَات سَادَات مَكَّةَ الَّتِى تُنَادِى بِقِتَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَتْ عَلَى كُلِّ صَوْتٍ ، وَأَبَوْا إِلَّا أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى يَثْرِب (المَدِينَة) لِلْقَضَاءِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

وَمَنْ مَعَهُ ، لَقَدْ تَجَمَّعُوا فِى جَيْشٍ كَبِيرٍ وَظَلُّوا فِى سَيْرِهِمْ إِلَى أَنْ وَصَلُوا عِنْدَ مَكَانٍ يُسَمَّى بَدْراً قَرِيباً مِنَ المَدِينَةِ وَهُنَاكَ كَانَ النَّبِىّ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ فِى انْتِظَارِهِم .

كَانَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) تُتَابِعُ أَخْبَارَ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَهُمْ يَسْتَعِدُّونَ لِقِتَالِ المُسْلِمِينَ فَتَدْعُو لِأَبِيهَا وَمَنْ مَعَهُ بِالْفَوزِ المُبِين عَلَى تِلْكَ الجُمُوعِ المُشْرِكَةِ ، وَتَعْجَبُ مِنْ اشْتِرَاكِ زَوْجِهَا فِى القِتَالِ مَعَ المُشْرِكِينَ ، فَقَدْ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ ، فَاشْتَرَكَ فِى القِتَالِ ، وَلَا نَدْرِى السَّبَبَ الأَصْلِىّ الَّذِى جَعَلَهُ يَشْتَرِكُ فِى هَذِهِ الحَرْبِ ، أَحُبًّا فِى الغَنِيمَةِ ؟ أَمْ لِتَمْوِيل جَيْشِ المُشْرِكِينَ بِالسِّلَاحِ لأَنَّهُ تَاجِر أَسْلِحَةٍ ؟ أَمْ خَوْف اللَّوْمِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَاتِّهَامِهِ بِأَنَّهُ تَخَلَّى عَنْ قَوْمِهِ وَقْتَ الشِّدَّةِ ؟ وَهَذَا يُنْقِصُ مِنْ قَدْرِهِ وَمَكَانَتِهِ عِنْدَ سَادَةِ مَكَّة ، أَمْ أَنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ مَكَّةَ سَتَنْتَصِرُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ فَيَكُونُ شَفِيعاً عِنْدَهُمْ ، فَهُوَ زَوْجُ خَالَتِهِ وَوَالِدُ زَوْجته الَّذِى فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا لِخِطْبَةِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) ؟ لَعَلّ كُلّ هَذَا وَرَدَ عَلَى خَاطِرِهِ ، وَلَكِنْ حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ فِى الحُسْبَان .

★ ★ ★



فَـرْحَـةٌ لَمْ تَكْتَمِـل

لَقَدْ انْتَصَرَ المُسْلِمُونَ فِى مَوْقِعَةِ (بَدْرٍ) وَذَهَبَتْ أَحلَام أَبِى العَاص أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ ، وَقُتِلَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ ، وَتَوَالَتْ الأَخْبَارُ عَلَى مَكَّةَ تَحْمِلُ أَسْمَاءَ القَتْلَى حَتَّى لَقَدْ ظَنَّ المُقِيمُونَ بِهَا أَنَّ أَحداً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ لَمْ يَنْجُ مِنَ القَتْلِ .

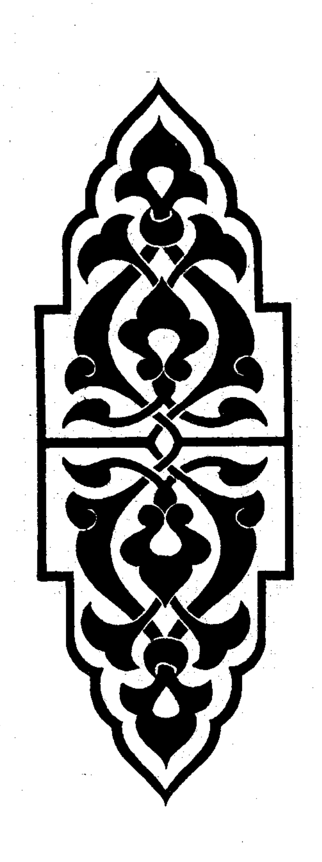
فَرِحَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ اللهُ عنهَا) بِانْتِصَارِ النَّبِىّ ﷺ ، وَلَكِنَّ فَرْحَتَهَا لَمْ تَكْتَمِل ، لَقَدْ طَلَبَتْ مِنْ زَوْجِهَا أَلَّا يَذْهَبَ مَعَ القَوْمِ لِلْقِتَالِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُطَاوِعْهَا ، وَهُوَ — فِى ظَنِّهَا — فِى عِدَادِ القَتْلَى ، وَيُتِّمَ طفلَاهَا أُمَامَة وَعَلِىّ — فَكَيْفَ تَكْتَمِل فَرْحَتُهَا وَأَبُو العَاصِ بَيْنَ القَتْلَى ؟!

لَقَد أَصْبَحَتْ فِى حَيْرَةٍ مِنْ الأَمْرِ ، وَظَلَّتْ لَيلهَا سَاهِرَةً حَتَّى طَرَقَتْ بَابَهَا عَاتِكَة بنْت عَبْدِ المُطَّلب عَمَّة أَبِيهَا ، فَأَسْرَعَتْ فِى لِقَائِهَا ، وَابْتَدَرَتْهَا قَائِلَةً : مَا الأَخْبَارُ يَا عَمَّتَاهُ ؟

قَالَتْ عَاتِكَة بِنْت عَبْدِ المُطَّلِب : كُلُّ خَيْرٍ يَا زَيْنَب .

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ اللهُ عنهَا) : لَنْ يَكْتَمِلَ الخَيْرُ إِلَّا بِالاطْمِئْنَانِ عَلَى أَبِى العَاص .

قَالَتْ عَاتِكَة بِنْت عَبْدِ المُطَّلِب : اطْمَئِنِّى يَا زَيْنَب ، فَأَبُو العَاص بِخَيْرٍ .



قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : كَيْفَ يَا عَمَّتَاهُ ؟

قَالَتْ عَاتِكَة بِنْت عَبْدِ المُطَّلِب : لَا تنْزَعِجِى ... فَإِنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ ، بَلْ وَقَعَ فِى الأَسْرِ ، وَسَوْفَ يَذْهَبُونَ بِهِ إِلَى المَدِينَةِ .

قَالَتْ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : لَقَدْ اسْتَرَحْتُ الْآنَ ـــ يَا عَمَّتَاهُ ـــ وَكَمُلَتْ فَرْحَتِى بِانْتِصَارِ أَبِى ، وَنَجَاةِ أَبِى العَاص .

الزَّوْجَــةُ الوَفِيَّة

وَصَلَ الخَبَرُ إِلَى مَكَّةَ أَنَّ المُسْلِمِينَ يَرْغَبُونَ فِى افْتِدَاءِ الأَسْرَى الَّذِينَ فِى قَبْضَتِهِمْ ، وَمِنْهُمْ أَبُو العَاص الَّذِى رَآهُ النَّبِىّ ﷺ فَأَخَذَهُ مَعَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : « اسْتَوْصُوا بِالأَسْرَى خَيْراً »[1] .

★ ★ ★

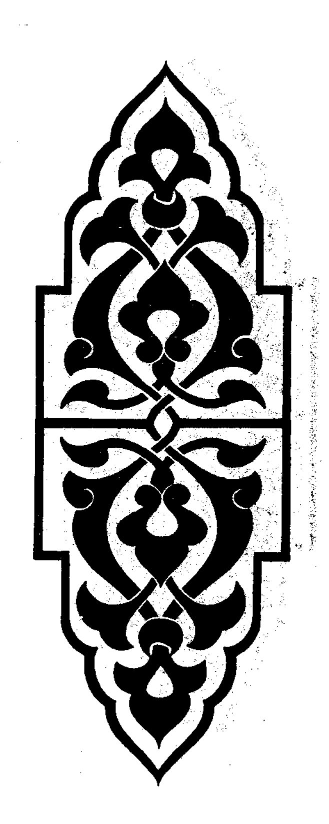
أَرَادَ المُسْلِمُونَ أَنْ يَأْخُذُوا بِحَقِّهِمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ، فَكَانُوا يُضَاعِفُونَ الفِدَاء ، وَاسْتَجَابَ أَهْلُ مَكَّةَ لِكُلِّ مَا يَطْلُبُهُ المُنْتَصِرُونَ ، رَغْبَةً فِى التَّعْجِيلِ بِفَكِّ الأَسْرَى ، وَسُرْعَةِ رُجُوعِهِم إِلَى مَكَّةَ حَتَّى يُقَلِّلوا مِنَ العَارِ الَّذِى وَقَعُوا فِيهِ .

كَانَ مَعَ مَنْ حَضَرَ مِنْ مَكَّةَ للفِدَاءِ أَخُو أَبِى العَاص ، لِيَدْفَع مَا يَفْدِى بِهِ أَخَاهُ .

تَقَدَّمَ إِلَى النَّبِىّ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : أَنَا مِنْ عِنْدِ زَيْنَب

---

(١) كنز العمال (١١٠٣٦) .

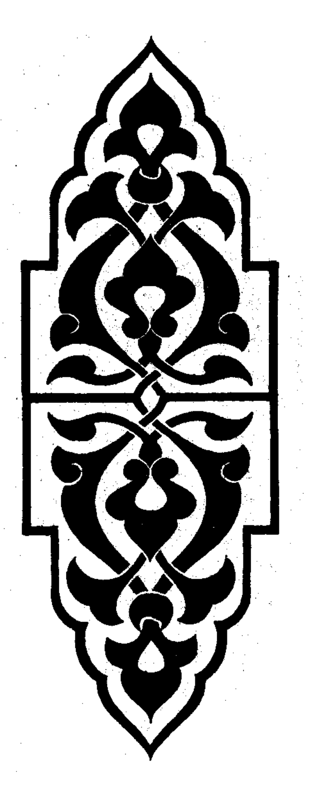


بِنْت مُحَمَّد ، وَمَعِيَ صُرَّةٌ (وَهِيَ ثَوب مِنْ قُطْن أَوْ كِتّان) ، ثُمَّ قَدَّمَهَا إِلَى النَّبِيّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : مَعِي مَا أَفْتَدِي بِهِ أَبَا العَاص ، وَأَعْطَى الصُّرّة لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِدَاخِلِ الصُّرّةِ دُهِشَ وَقَالَ ﷺ : لَكِ اللهُ يَا زَيْنَب ! قِلَادَةُ خَدِيجَة ... ثُمَّ سَكَتَ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ أُمَّهَا أَهْدَتْهَا هَذِهِ القِلَادَةَ لَيْلَة عُرْسِهَا حِينَ زُفَّتْ إِلَى أَبِي العَاص .

سَكَتَ الصَّحَابَةُ ، وَقَدْ أُخِذُوا بِجَلَالِ المَوْقِفِ ... ثُمَّ تَكَلَّمَ ﷺ فَقَالَ : « إِنْ أَرَدتم أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا ، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا قِلَادَتَها فَافْعَلُوا » [1] .

فَنَطَقُوا جَمِيعاً مِلْءَ أَفْوَاهِهِمْ :

(نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ...) ، ثُمَّ أَطْلَقُوا سَرَاحَهُ .



فِـرَاقُ الزَّوْجَيْـنِ

أَطْلَقُوا أَبَا العَاص بْن الرَّبِيعِ ، فَالْتَقَى بِرَسُولِ الله ﷺ ، وَتَحَادَثَا فِي مَوْضُوعَاتٍ شَتَّى ... ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ (رَضِيَ الله عنهَا) فَمَا عَادَتْ تَحِلُّ لَهُ ، حَيْثُ أَنَّ دِينَهُمَا قَدِ اخْتَلَفَ ، فَهُوَ مَا يَزَالُ عَلَى دِينِ قُرَيْشٍ مِنْ عِبَادَةٍ للأَصْنَام ، وَزَيْنَب (رَضِيَ الله عنهَا) قَدْ آمَنَتْ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

---

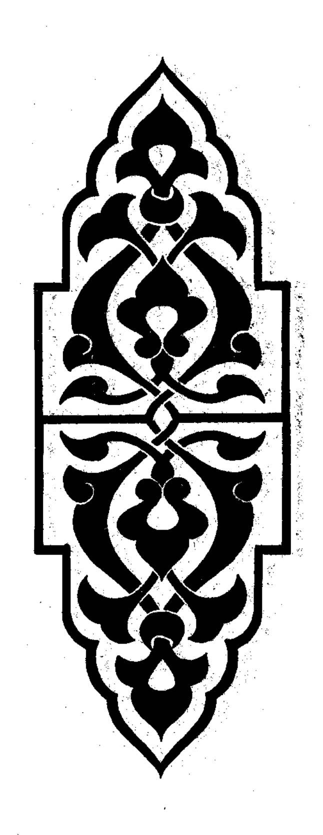
(١) أبو داود (٢٦٩٢) ، وأحمد (٦/٢٧٦) .

لَقَدْ مَنَعَ الإِسْلَامُ أَنْ يَتَزَوَّجَ غَيْرُ المُسْلِم مُسْلِمَةً أَوْ يَسْتَمِرّ زَوَاجُهُمَا إِنْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ قَبْلَ المَنْعِ ، فَيَتْرُك كُلّ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، وَالسَّيِّدَة زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) قَدْ آمَنَتْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ مُنْذُ بَدْءِ الدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلَامِ ، فَوَعَدَ أَبُو العَاصِ بِأَنْ يُخَلِّىَ سَبِيلَهَا بِمُجَرَّدِ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَكَّةَ .

فَلَمَّا عَادَ أَبُو العَاص بْنُ الرَّبِيع طَلَبَ مِنَ السَّيِّدَةِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) أَنْ تَتَجَهَّز لِتَلْحَق بِوَالِدِهَا ، وَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ كِنَانَةَ بْنِ الرَّبِيع أَنْ يُعِدّ لَهَا بَعِيراً لِيوصّلَهَا إِلَى المَكَانِ الَّذِى اتَّفَقَ عَلَيْهِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

اسْتَدْعَى رَسُول اللهِ ﷺ زَيْدَ بْنِ حَارِثَة (رَضِىَ الله عنهُ) حَبِيبَ رَسُول اللهِ ﷺ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَذْهَبَ ، وَفِى صُحْبَتِهِ صَحَابِىّ مِنْ الأَنْصَارِ فَيَنْتَظِرَان مُرُورَ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) فِى مَكَانٍ ذَكَرَهُ لَهُمَا وَهُوَ (بَطْنِ بَاجج) وَهُوَ المَكَانُ الَّذِى اتَّفَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَبِى العَاصِ أَنْ يُوَصِّلَهَا إِلَيْهِ ، وَفِى هَذَا المَكَانِ جَلَسَ زَيْد وَمَنْ مَعَهُ يَنْتَظِرَانِ مُرُورَ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) .

رَكِبَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) بَعِيرَهَا ، وَأَخَذَ (كِنَانَةُ) قَوْسَهُ ، وَعَلَّقَ سَيْفَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ نَهَاراً أَمَامَ القَوْمِ يَقُودُ بِهَا البَعِير ، وَهِىَ فِى هَوْدَجِهَا .



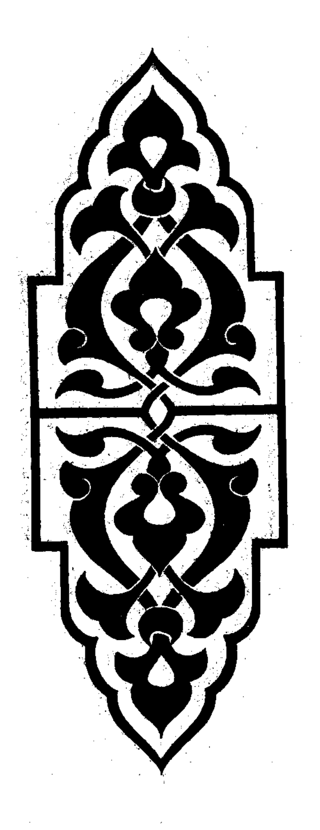
عَلِمَ القَوْمُ فِى مَكَّةَ بِقِصَّة زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) مَعَ زَوْجِهَا ، وَبرحْلَتِهَا إِلَى أَبِيهَا ﷺ بِالمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ أَحْدَاثُ (بَدْر) وَالْهَزِيمَة الَّتِى لَحِقَتْهُمْ مَاثِلَةً أَمَامَ أَعْيُنِهِم ، وَصُورُ قَتْلَى المَعْرَكَةِ مُتَمَثِّلَةٌ فِى ذِهْنِهِمْ ، وَمَا تَزَالُ هِنْد بِنْت عُتبة تُذَكِّى النَّارَ وَالحَمَاسَ فى نُفُوسِ النَّاسِ فِى مَكَّةَ ، فَكَانَتْ تَخْرُجُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْ بَيْتِهَا إِلَى أَنْدِيَةِ قُرَيْشٍ ، تَدْعُو لِلثَّأْرِ مِنَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَبَاهَا فِى غَزْوَةِ (بَدْرٍ) وَعَمَّهَا شَيْبَة ، وَأَخَاهَا الوَلِيدَ ابن عُتْبَة ، وَابْنَ عُبَيْدَةَ ، وَالعَاص بن سَعِيد ، وَابْنَ زَوْجِهَا حَنْظَلَة بن أَبِى سُفْيَان بن حَرْبٍ .

عَلِمَ القَوْم فِى مَكَّةَ بِخُرُوجِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) ، فَجَرُوا خَلْفَهَا يُرِيدُونَ مَنْعَهَا مِنَ الذَّهَابِ إِلَى المَدِينَةِ ، وَلِقَاءِ أَبِيهَا .

وَكَانَ أَشَدُّهُمْ حَمَاساً وَانْتِقَاماً هَبَّارَ بنَ الأَسْوَد ، وَنَافِع أَوْ خَالِد بن قَيْسٍ ، وَنَخس هَبَّارُ بَعِيرَ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) ، فَأَلْقَى بِهَا عَلَى صَخْرَةٍ هُنَاكَ ، وَكَانَتْ حَامِلًا فِى الشَّهْرِ الرَّابِعِ ، فَسَقَطَ الجَنِينُ ، وَأَصَابَهَا مَا يُصِيبُ الحَامِلَ الَّتِى سَقَطَ جَنِينُهَا مِنْ ضَعْفٍ وَمَرَضٍ .

وَقفَ ابنُ خَالَتِهَا وَأَخُو زَوْجِهَا (كِنَانَةُ بنُ الرَّبِيع) يَسْتَعِدُّ لِقِتَالِ القَوْمِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ ابْتَعَدُوا عَنْهُ خَوْفاً عَلَى أَرْوَاحِهِمْ مِن القَتْلِ .

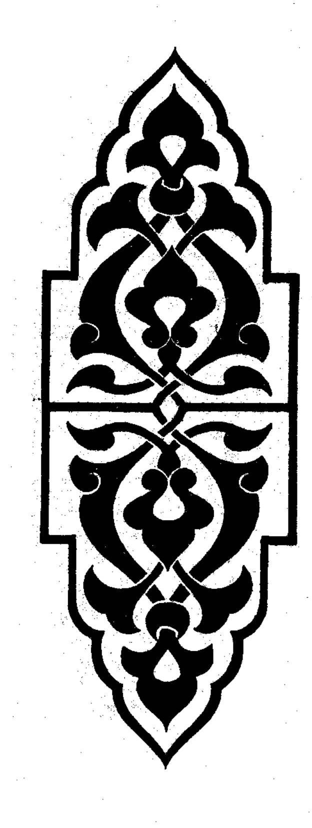
★ ★ ★



رَأْىٌ وَحِكْمَة

لَحِقَ أَبُو سُفْيَان بِالْقَوْمِ وَ(كِنَانَةَ بن الرَّبِيعِ)، وَكَادَت الحَرْبُ وَالقِتَالُ أَنْ يَقعَا بَيْنَهُمَا، فَوَقَفَ أبُو سُفْيَان بَعِيداً، وَرَاح يُكَلِّمُ (كِنَانَةَ بن الرَّبِيعِ) وَيُنَادِيه قَائِلًا: كُفَّ عَنَّا نَبْلَكَ حَتَّى نُكَلِّمَكَ.

فَكَفَّ (كِنَانَةُ) نَبْلَهُ، وَاسْتَمَعَ إِلَى أَبِى سُفْيَان، وَقَدْ تَقَدَّمَ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْهُ أَكْثَرَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَان لَهُ: إِنَّكَ لَمْ تُصِبْ يا ابْنَ الرَّبِيعِ، خَرجْتَ بِزَيْنَبِ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ عَلَانِيَةً، وَقَدْ عَرَفْتَ مُصِيبَتَنَا وَنَكْبَتَنَا، وَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ مُحَمَّدٍ، فَيَظُنَّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ ذُلٍّ أَصَابَنَا، وَإِنَّ فِى ذَلِكَ ضَعْفٌ وَوَهَنٌ، وَلَعَمْرِى مَا لَنَا بِحَبسِهَا عَنْ أَبِيهَا حَاجَة، وَلَكِنْ ارْجِعْ بِزَيْنَب حَتَّى إِذَا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ، وَتَحدَّثَ النَّاسُ أَنْ قَدْ رَدَدْنَاهَا فَسُلَّهَا سِرًّا، فَأَلْحِقْهَا بِأَبِيهَا.



بَيْنَ هِنْد وَزَيْنَب
(رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا)

أَمَّا هِنْد بِنْتُ عُتْبَة (رَضِىَ الله عنهَا) فَقَدْ عَلِمَتْ بِمَا جَرَى مِنَ القَوْمِ وَزَوْجِهَا أَبِى سُفْيَان، وكَانَ لهَا حَدِيثٌ مَعَ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا)، تَحْكِيهِ بنتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فتقول (رَضِىَ الله عنهَا): بَيْنَمَا أَتَجهَّزُ بمَكَّةَ لِلّحَاقِ بأَبِى لَقِيَتْنِى هندُ بنتُ عُتبة.

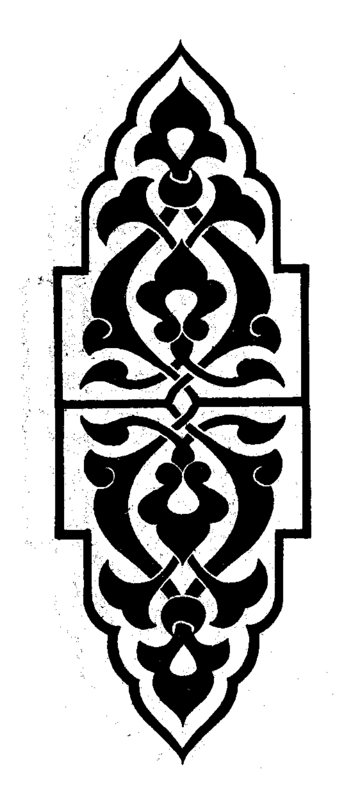
فقالَتْ : يَا بنت مُحَمَّد ﷺ ! قَدْ بَلَغَنِى أَنَّكِ تُرِيدِينَ اللَّحَاقَ بأبيكِ ؟

فقلتُ : ما أَرَدتُّ ذَلكَ .

قَالَتْ هندُ : أَى ابنة عَمِّى ! لَا تَفْعَلى ... إِنْ كَانَتْ لَكِ حَاجَة بمتاع مِمَّا يرفق بكِ فى سَفَرك ، أَو بمال تَتَبلَّغين بهِ إِلَى أَبيك ، فَإِن عندى حَاجتك ، فلَا تتحَرَّجِى منى ، فإِنهُ لا يَدخُل بين النِّسَاء ما بين الرِّجَال ...

ثُمَّ أَكملَتْ السَّيِّدَة زَيْنَب (رَضِى الله عنهَا) كلمتها فقالت : وَالله ما أَرَاهَا قَالَتْ ذَلكَ إِلَّا لتفعَل ، ولكنِّى خفتُها ، فأَنْكَرتُ أَنْ أَكون أُرِيدُ ذلك ... ثُمَّ تَجَهَّزَتْ للرَّحِيل إِلَى يَثْرِبَ (المدينة) .





ثُمَّ عَلِمَتْ هِنْدُ بنتُ عُتبة بما جَرَى من القَوْم وَمَا جَرَى لزَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) مِنْ حَدَثٍ ، والرُّجُوع بهَا إِلَى بَيْت خَالَتهَا ، فآلمهَا ذلكَ ، فَرَاحَتْ تَسْخر من قومهَا وتَلُومهُم قائلةً : أَمعركة علَى أُنثى عَزْلَاء ؟ فهلا كانَتْ هَذهِ الشَّجَاعَة يوم بَدْر ... !!؟

أَفِى السِّلْمِ أَغْيَاراً جفاءً وَغِلْظَةً
وَفِى الحَرْبِ أَشْبَاهَ النِّسَاءِ العَوَارِكِ [1]



---

(١) **نساءٌ عَوارِكُ** : أى حُيَّضٌ .

رجُوع زَيْـنَب (رَضِىَ اللَّـهُ عَنْهَا) إِلَى بَيْـت خَالَتهَـا

اضْـطُرّ ابنُ خَـالَتهَا أَنْ يَرْجِعَ بِهَا إِلَى بَيْتِ خَالَتِهَا بَعْدَ أَنْ فَقَـدَتْ جَنِينَهَا فَلَزِمَتْ البَيْتَ حَتَّى اسْتَرَاحَتْ قَلِيلًا ، ثُمَّ تَابَعَتْ المَسِيرَةَ حَتَّى الْتَقَتْ بِزَيْدِ بنِ حَارِثَةَ وَصَاحِبه (رَضِىَ الله عنهُما) ، ثُمَّ وَصَلَتْ المَدِينَةَ .

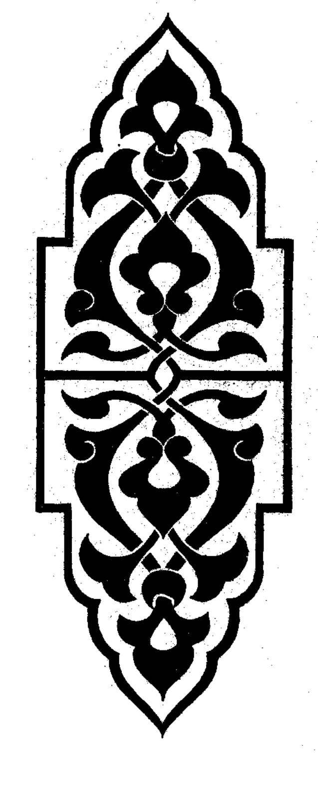
حُــزْن وَغَضَــب

كَانَتْ الأَخْبَارُ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَحَزِنَ حُزْناً شَدِيداً وَغَضِبَ مِنْ جَرَّاءِ مَا أَصَابَ ابْنَتَهُ ، وَتَوَعَّدَ وَهَدَّدَ ، وَأَمَرَ بالانتِقَام لِزَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) مِنْ جَرَّاء مَا أَصَابَهَا .

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ (رَضِىَ الله عنهُ) : « بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً أَنَا فِيهَا ، فَقَالَ لَنَا : إِنْ ظَفرْتُم بِهَبَّار ابنِ الأَسْوَدِ أَوْ الرَّجُل الآخر ــ سَمَّاهُ ابنُ إِسْحَاق ، فقَالَ : هُوَ نَافِع بن عَبد قَيْس ــ فَحَرِّقُوهُمَا بِالنَّارِ ... فَلَمَّا كَانَ الغَدُ بَعَثَ إِلَيْنَا فقَالَ : إِنِّى كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ بِتَحْرِيقِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِنْ أَخَذْتُمُوهُمَا ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ أَنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَإِنْ ظَفرْتُم بِهِمَا فَاقْتُلُوهُمَا » (١) .

---

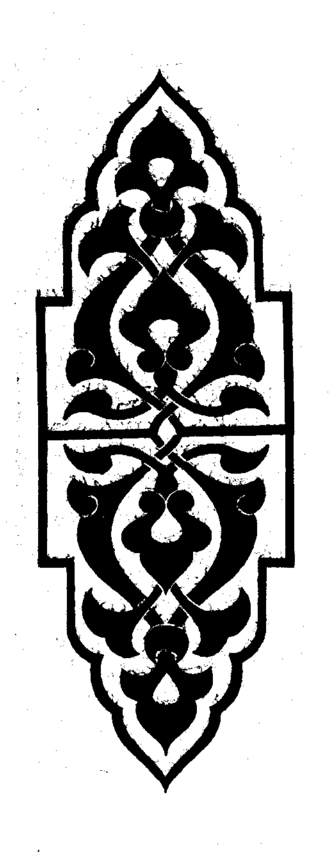
(١) ابن أبى شيبة (٣٨٩/١٢) .



فِى المَدِينَةِ

عَاشَت السَّيدَةُ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) فِى المَدِينَةِ مَعَ طِفْلَيْهَا فِى رِحَابِ وَالِدِهَا ﷺ ، كَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا وَيُلَاعِبُ عَلِيًّا وَأُخْتَهُ أُمَامَة (رَضِىَ الله عنهُما) ، وَكَانَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) تَتَرددُ أَحْيَاناً عَلَى المَسْجِدِ ، فَتَرَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَدْ شُغِلَ بِأُمُورِ المُسْلِمِينَ ، وَكَانَتْ الدَّعْوَةُ تَنْتَشِرُ فِى أَنْحَاءِ البِلَادِ كَالْبَرْقِ .

وَلَكِنَّ العَدَاءَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَة مَا يَزَال عَلَى أَشُدِّه ، وَالمُسْلِمُونَ لَا يَزَالُونَ يَتَرَبَّصُونَ بِالكُفَّارِ الدَّوَائِرَ ، فَهُمْ لَمْ يَنْسُوا مَا فَعَلَ بِهِمْ سَادَاتُ مَكَّةَ ، وَإِنَّهُمْ لِيَنْتَهِزُونَ الفُرْصَة لِاسْتِرْدَادِ حُقُوقِهِم .



وَكَانَتْ السَّرَايَا تُتَابِعُ جُمُوعَ أَهْلِ مَكَّةَ وَتُجَّارَهُمْ كَيّ يَظْفَرُوا بِرِجَالِهَا وَمَعَهُمْ تِجَارَةٌ يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا ، وَبَيْنَمَا هُمْ يَجُوبُونَ الصَّحْرَاءَ ، وَجَدُوا قَافِلَةً آتِيَةً مِن الشَّامِ ، فَكَمنُوا لَهَا ، ثُمَّ أَحَاطُوا بِهَا ، وَأَخَذُوا كُلّ مَا مَعَهُمْ ، وَكَادُوا يَأْسِرُونَ الرِّجَال ، لَوْلَا أَنَّهُمْ فَرّوا خَوْفاً مِنَ القَتْلِ .

وَكَانَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) تُتَابِعُ مَعَ أَهْلِ المَدِينَة هَذِهِ الأَخْبَار ، وَتَعْلَمُ أَنَّ رِجَالَ هَذِهِ القَافِلَةِ قَدْ فَرُّوا إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْلَى المُسْلِمُونَ عَلَى مَا كَانَ

مَعَهُمْ مِنْ أَمْوَالٍ وَبَضَائِعَ وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَنَّ أَبَا العَاص مَعَهُمْ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ مَعَهُمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَأَنَّهُ اخْتَارَ فِيمَا يَفْعَلُ ، وَقَدْ أَعْطَاهُ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَمْوَالًا طَائِلَةً وَأَنَّهُ مُلْزَمٌ بِرَدِّهَا .

رَاحَ يُفَكِّرُ فِي طَرِيقَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تُعيدُ إِلَيْهِ هَذِهِ الأَمْوَال أَوْ بَعْضهَا أَو يَعْمَل عَمَلًا يَرْجِعُ بِهِ إِلَى مَكَّةَ يُعْرف مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يُقَصِّر أَوْ يُهْمِل فِي المَالِ الَّذِى كَانَ مَعَهُ ، وَأَنَّهُ فَعَلَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ .

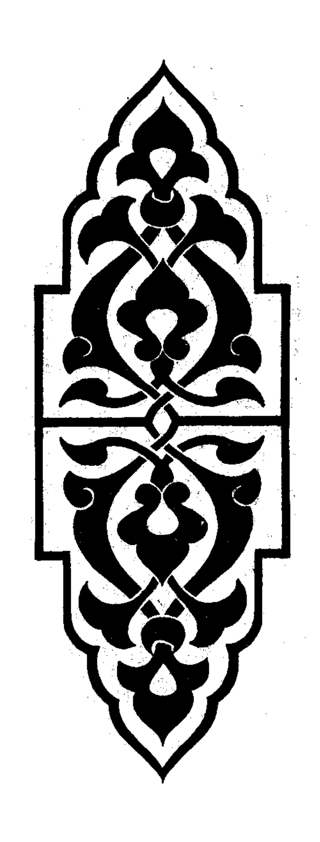
فِى جِوَار زَيْنَب (رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا)

لَقَدْ هَدَاهُ تَفْكِيرُهُ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى المَدِينَةِ سِرًّا ، وَيَتَّجِهَ إِلَى بَيْتِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) ابنَة خَالَتِهِ وَيَسْتَجِيرَ بِهَا لَعَلَّهُ يَجِدُ عِنْدَهَا مَخْرَجاً مِمَّا وَقَعَ فِيهِ ، فَيَحْفظ بِهِ مَاءَ وَجْهِهِ .

وَعِنْدَمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، وَتَحْتَ جُنْحِ الظَّلَامِ ، دَخَلَ المَدِينَةَ ، وَتَسَلَّلَ حَتَّى صَارَ عَلَى بَابِ بَيْتِ ابْنَةِ خَالَتِهِ .

نَادَاهَا ... مُسْتَجِيراً بِهَا فَأَجَارَتْهُ ، وَكَانَتْ بَشَائِرُ الصَّبَاحِ قَدْ لَاحَتْ ، وَاسْتَعَدّ المُصَلُّونَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ ، وَعِنْدَمَا كَبَّر رَسُولُ اللهِ ﷺ وَكَبَّر النَّاسُ بَعْدَهُ ، سَمِعَ صَوْتاً يُنَادِى إِنَّهُ صَوْتُ ابنَتِهِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) تَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ... إِنِّى قَدْ أَجَرْتُ أَبَا العَاص بن الرَّبِيع !

سَلَّم رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ بَعْد أَن أَتَمَّهَا ،



وَسَلَّمَ النَّاسُ مَعَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْمُصَلِّينَ قَائِلًا : « أَيُّهَا النَّاس هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ ؟

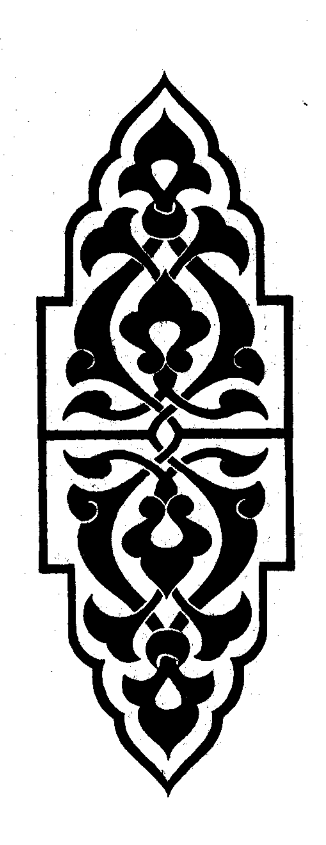
قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ الله .

قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ : أَمَّا وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَىءٍ مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُمْ ، إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ ، وَقَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ »(١) .

ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ابْنَتِهِ .

فَقَالَتْ لَهُ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) : يَا رَسُول الله ! أَجَرْتُ أَبَا العَاص !

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَىْ بُنَيّة أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ، وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكِ ، فَإِنَّكِ لَا تَحِلِّينَ لَهُ »(٢) .



أَبُو العَاص يَقُص قصَّته عَلَى زَيْنب (رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا)

قَصَّ أَبُو العَاصِ قِصَّتَهُ ، فَهُوَ لَمْ يَأْتِ مُسْلِماً ، وَإِنَّمَا جَاءَ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، فَقَدْ خَرَجَ إِلَى الشَّام بِتجَارَةٍ لَهُ وَلِقَوْمِهِ ، وَمَعَهُ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَفِى أَثْنَاء عَوْدَتِهِ هَجَمَتْ عَلَيْهِ سَرِيَّة من الْمُسْلِمِينَ فِيهَا زَيْدُ بنُ حَارِثَة (رَضِىَ الله عنهُ) ومَعَهُ مِائَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا فَأَصَابُوا كُلَّ

---

(١) البيهقى (٩/٩٥) .

(٢) انظر : المستدرك (٢٣٦/٣) .

مَا مَعَهُمْ وَخَافُوا من القَتْلِ فَوَلُّوا هَارِبينَ ، وَوَلَّى هُو أَيضاً هَارباً مُتَخَفِّياً حتَّى وَصَلَ إِلَى بَيْتِ ابنةِ خَالتِهِ وَزَوْجَتهِ زَيْنَب (رَضِىَ الله عنهَا) .

★ ★ ★

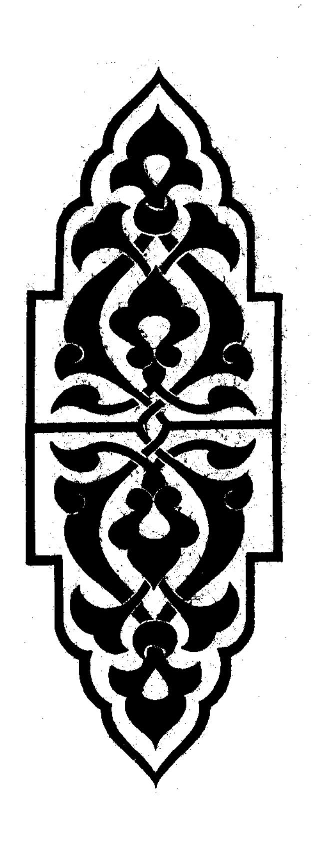
أَكْرَمَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ الله عنهَا) أَبَا العَاص ، وَأَحْسَنَتْ اسْتِقْبَالَهُ ، ثُمَّ جَلَسَ مَعَ النَّبِىّ ﷺ ، وَأَعْطَاهُ النَّبِىّ ﷺ مَا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ مَالٍ وَتِجَارَةٍ ، لَهُ وَلِأَهْلِ مَكَّةَ .

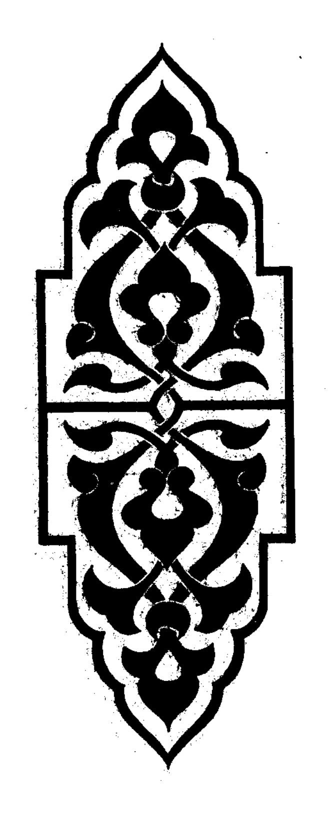
ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ وَأَعْطَاهُمْ مَا أَرَادُوا ، وقسَّمَ عَلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ دُونَ نُقْصَانٍ ، وَفَرِحَ القَوْمُ بِذَلِكَ فَرَحاً كَبِيراً ، وَأَحسَّ أَبُو العَاص أَنَّهُ أَدَّى مَا عَلَيْهِ .

أَبُو العَاص يَتَوَجَّهُ إِلَى المَدِينَة

لَمْ يَكُنْ أَمَام أَبِى العَاصِ إِلَّا أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى المَدِينَةِ ، فَلَيْسَ لَهُ سَبَبٌ مِنَ الأَسْبَابِ يَدْعُوهُ لِلْبَقَاءِ فِى مَكَّةَ ؛ فَالتِّجَارَةُ قَدْ قَلَّ مَوْرِدُهَا ، وَالسَّادَةُ الَّذِينَ كَان يُرْجَى الاعْتِمَادُ عَلَيْهِمْ قَدْ قَلّوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ مَاتَ فِى غَزْوَةِ (بَدْرٍ) ، وَمِنْهُمْ مَنِ اسْتَكَانَ ، وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى القِمَّةِ إِلَّا القَلِيلُ .

جَمَعَ أَبُو العَاص كُلَّ أَمْوَالِهِ وَمَتَاعِهِ وَمَا يَمْلِكُ ، وَوَدَّعَ مَنْ بَقِىَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَوْصَاهُمْ بِأَنْ يَلْحَقُوا بِهِ ، فَالحَيَاةُ فِى مَكَّةَ أَصْبَحَتْ مَهِينَةً .





وَلَا بُدَّ لَهَا من التَّغْيير، والدَّليلُ أَنَّ النَّاس يُهَاجِرونَ إِلَى المَدِينَة لِيَلْحَقُوا بِرَكْبِ المُسْلِمِينَ هُنَاك، وَيُؤْمِنُوا بِرسَالَة مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ سَيَدْخُلُ مَكَّةَ قَصُرَ الوَقْتُ أَمْ طَالَ.

خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَلَمْ يَقِفْ فِي طَرِيقِهِ أَحَدٌ، وَوَصَلَ إِلَى المَدِينَة سَالِماً، وَلَمْ يَدْخُلْ بَيْتَ أَحَدٍ مِنْ الأَهْلِ وَالأَقَارِبِ، بَلْ اتَّجَهَ إِلَى المَسْجِدِ، مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ المُسْلِمُونَ فَرِحُوا بِهِ كَثِيراً، وَهَنَّأُوهُ عَلَى أَنَّهُ جَاءَ مُخْتَاراً مُؤْمِناً عَنْ عَقِيدَةٍ وَإِيمَانٍ.

وَأَكْبَرُوا فِيهِ صِفَاتِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ وَبُعْدَ النَّظَرِ وَحُرِّيَّةَ التَّفْكِيرِ وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ أَبُو العَاص: جِئْتُ ــ يَا رَسُولَ الله ــ مُخْتَاراً طَائِعاً للهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَرْحَباً بِكَ يَا أَبَا العَاص بَيْنَ أَهْلِكَ وَأَقَارِبكَ.

وَنَطَقَ أَبُو العَاصِ بِالشَّهَادَتَيْنِ أَمَامَ رَسُول اللهِ ﷺ وَأَمَامَ جَمْعٍ كَبِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

أَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَثِيراً، ثُمَّ سَارَ إِلَى البَيْتِ وَمَعَهُ ابن الرَّبِيعِ.

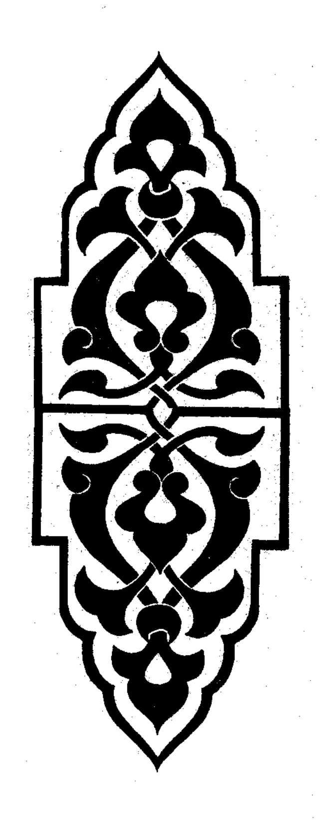
★ ★ ★

الرَّسُولُ ﷺ يَرُدُّ زَيْنَب لِزَوْجِهَا (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)

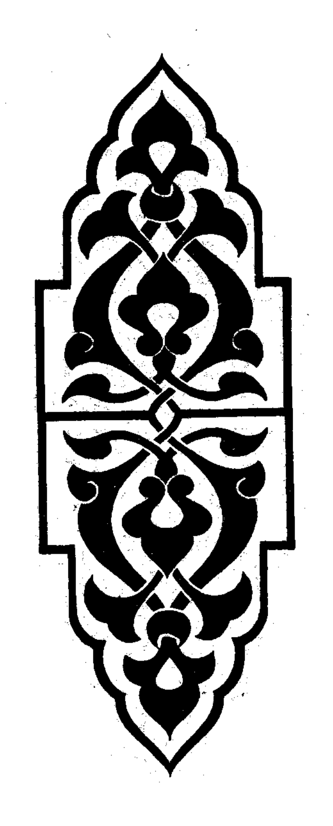
دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ (رَضِيَ الله عنهَا) إِلَيْهِ، فَرَدَّهَا عَلَى أَبِى العَاصِ (رَضِيَ الله عنهُ).

وَاجْتَمَعَ شَمْل أَبِى العَاصِ وَزَيْنَب وولديهما عَلَىّ وَأُمَامَةَ (رَضِيَ الله عنهُم)، وَمَضَى عَام كَامِل عَلَى هَذَا اللِّقَاءِ إِلَى أَنْ بَدَأَتْ السَّنَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الهِجْرَةِ، كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا وَيُلَاعِبُ الطِّفْلَيْنِ عَلَىّ وَأُمَامَةَ (رَضِى الله عنهُما)، وَكَانَا أَحْيَاناً يَلْتَقِيَانِ بِجَدِّهِمَا فِى المَسْجِدِ فَيَفْرَحُ بِهِمَا، وَيَخْرُجُ مَعَهُمَا، وَيَظَلَّانِ مَعَهُ حَتَّى يُوَصِّلَهُمَا إِلَى البَيْتِ فَيَجْلِس قَلِيلاً وَيُسَلِّمَ عَلَى ابْنَتِهِ زَيْنَب (رَضِيَ الله عنهُم)، ثُمَّ يَرْجِع.





الـمَـرَضُ وَالوَفَـاة



كَانَتْ زَيْنَبُ (رَضِىَ اللهُ عنهَا) لَا تَزَالُ تُعَانِى مِمَّا أَصَابَهَا عِنْدَ هِجْرَتِهَا مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ وَإِيذَاءِ هَبَّار وَزَمِيلِهِ لَهَا بِنَخْسِ نَاقَتِهَا ، وَوُقُوعِهَا عَلَى الصَّخْرَةِ ، وَفَزَعِهَا وَإِجْهَاضِهَا .

ظَلَّتْ تُعَانِى مِمَّا أَصَابَهَا ، وَلَمْ يُفِد التَّمْرِيضُ وَلَا عَوْدَةُ أَبِى العَاصِ ، فَلَزِمَتْ الفِرَاشَ تَنْتَظِرُ أَمْرَ اللهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ حَتَّى قُضِىَ الأَمْرُ ، وَانْتَقَلَتْ إِلَى الدَّارِ الآخِرَةِ .

جَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مَحْزُون الفُؤَادِ ، فَاسْتَوْدَعَهَا الله ، وَأَوْصَى النِّسْوَةَ بِأَنْ يَغْسِلْنَهَا وَتْراً ، وَأَنْ يَجْعَلْنَ فِى المَرَّةِ الأَخِيرَةِ كَافُوراً ...

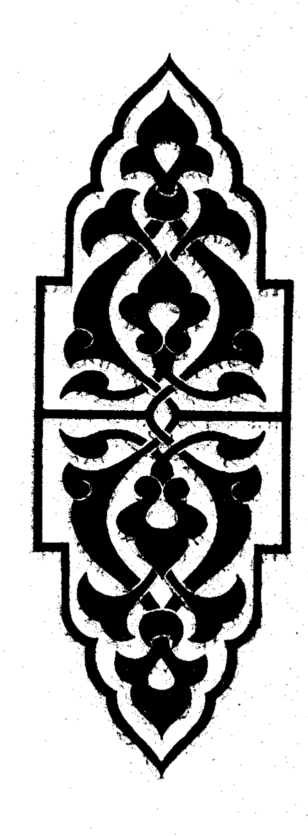
صَلَّى عَلَيْهَا أَبُوهَا ﷺ فِى مَسْجِدِهِ ، ثُمَّ مَشَى يُوَدِّعُهَا إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى مَثْوَاهَا الأَخِير ، يُشَارِكُهُ جَمْعٌ مِن الصَّحَابَةِ الَّذِينَ وُجِدُوا فِى المَدِينَةِ ــ رَحِمَهَا اللهُ وَرَضِىَ عَنهَا .



وإلى اللقاء بمشيئة الله مع ..

رقية رضي الله عنها ذات الهجرتين

★ ★ ★

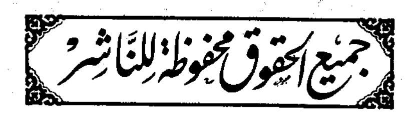


دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت وفاكس : ٤١٨٩٦٦٥
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦



وكيلنا في المملكة المغربية :
دار الاعتصام
للطباعة والنشر والتوزيع
الدحماني عبد الكريم
35 - 33 الشارع الملكي (الأحباس) - الدار البيضاء
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٧٦٢٢ / ١٩٩٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدي ـ ١١٢٣١

